صلاح الدين سعدي الزعبلاوي

في اللغة

أخطاؤنا في الصحف والدواوين

المطبعة الهاشمية بدمشق

في اللغة

أخطاؤنا

في الصحف والدواوين

مؤلّف

صلاح الدين سعدي الزعبلاوي

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

المقدمة

للاديب الكاتب الاستاذ قدري العمر

كنت على أن أكتب في بعض المثقفين وفي الجدل يغرقون فيه كلَّ من تحدث إليهم أو جلس بجانبهم ، حتى صار حديثهم مغالبة واضحة الأنانية ، وحتى صاروا لا يرجون من مجالسة الإخوان سوى نصر موهوم من جدل مملول!

وكان شأن هؤلاء آخذاً علي طرق الكلام فلا أستطيع أن أكتب في شيء قبل أن أنفس عن نفسي ما لقيت في عشرة نفر منهم من سأم وغم ، وكان موضوعهم قد تولد ونما ولم يبق منه إلا لبوسه من جمل وكلام ، وكنت كلما غرقت فيه غرقت في صور مضحكة محكمة تعرض عليّ عرضاً ممتعا أحسب معه أنني إذا نشرته في القراء نشرت فيهم ما يشركهم معي بالتنفيس عن النفس!

وكنت أيضا أبحث عن شخص مثقف ذاهب في التفكير مذهباً سهلاً واضحاً لا تعقيد في تفكيره ولا إبهام ولا توانى في عمله ولا إهمال ، كنت أبحث عن شخص عمله كتفكيره في اليسر والدأب عسى أن أبني مع النقد فيكون حق الغفلات عندي كحق اليقظات في العرض والتصوير وحتى أقرب ما استطعت من الصحيح السالم فلا أكون غالياً في التقبيح ولا غالياً في التجميل؛ فليس كل المثقفين أهل مراء في الحديث وتعقيد في الفهم والإفهام ، وليس كل المثقفين ثقفوا بما علموا فكانوا أهل إدراك أصيل وتفهيم مبين ، بل فيهم النوعان واللونان : الحلو والمر والمضيء والمظلم ، فما أحسن حظ من اتصل بالأولين وما أسوأ حظ من هوى إلى القرارة بمجالسة الآخرين !

وإني لفي هذا الموضوع أطويه وأنشره وقع في يدي كتاب « أخطاؤنا » لصاحبه

الأستاذ صلاح الدين سعدي الزعبلاوي ، وقد طبع بعضه وبقي بعضه ، فصفحته صفحاً مربعاً ظفرت معه بصفحات جديدة من حياة شخص عرفته منذ عشر سنين .

فقلت هنا الضالة المنشودة ؛ هذا الكتاب وصاحبه يتممان من موضوعي شطره الثاني الذي كنت أبحث عنه من يقظات الشباب .

ثم صار عليَّ أن أكتب مقدمة الكتاب فاضطررت أن أهمل الشطر الأول من الموضوع وهو ضوضاء الجدليين واجتزأت بالكتاب وصاحبه !

وما هو إلاّ أن عزمت حتى طار خاطري بين الماضي المحجوب وراء عشر سنين من الزمن ، ووقع على ذكريات غامضة مازالت تتصفى حتى صيرتني أمام زميل عزيز عليَّ يقول لي : إن في الفتيان ذوقاً دقيقاً لم يتذوقه الكهول المتقدمون ثم أخرج صفحة أدبية وقرأها عليَّ فإذا فيها حركة وإلهام ، وبارقة لامعة من عاطفة ، ووضوح ، وخطفة للحياة لامحة ، وإذا هي لفتى لم تبلغ سنه السابعة عشرة .

كان الصديق هو المرحوم ناجي أديب وكان صاحب القطعة الأدبية هو صلاح الدين سعدي الزعبلاوي !

ولم أكن أعرف الزعبلاوي قبل ذلك اليوم ، ولم أكن رأيته بعد ، فوددت لو أراه لأهنئه بتقدير أستاذه ولأغريه بالكتابة والأدب ؛ فلمّا مرَّ رأيت الفتى النحيل الهادئ الرزين ، وأحسب اليوم أنني لمحت في أساريره يومئذٍ أشعة من التفكير الدقيق ، وأشعة من الاحتشام الحنون ، ولمحات من الصبر الدؤوب ؛ وقد كانت كلها في ريعان عمرها كما كان صاحبها في ريعان العمر .

ومنذ ذلك اليوم سكن في نفسي احترامه ، وتمنيت للداته فطرته وذوقه ورجوت له التعمير عسى أن يقوم بالمهمة التي ألقيت على كل عربي ينتمي إلى الفتيان الموهوبين !

ثم ازددت به إعجاباً يوم رأيت له كلمة في إحدى الصحف الدمشقية ،

يبحث فيها الأدباء والمتأدبين ، فيظهر بها دقيق الاطلاع على أساليب القوم حيث يميز أحسن التمييز بين الجميل والدميم من هذه الأساليب ، ويفرق بين الفاني منها والخالد ، ثم يحاول ابتكار طريقة في الأسلوب وفي تدريس الأدب !

ولم تمضِ على ذلك سنتان أو ثلاث حتى وقفت بي السيارة عرضاً في (النبك) فانتظرت في (القهوة) ساعة أو أكثر اجتمعت خلالها إلى فتية عرفتهم من قبل؛ وجرى حديث العمل الأدبي المنتج فانطلقوا يتحدثون عن رفيقهم الزعبلاوي بتقدير واغتباط ، يقولون هو هنا في النبك منذ أشهر ولكنه لا يدخل قهوة ولا يسهر في حلقة ولا يلهو لهو الموظفين ، بل ليس يراه أحد إلا عند الغروب بين السهول والهضاب يروح عن الفكر عناء التفكير مدة محدودة لا تزيد ولا تنقص ، ثم يعود الى معتكفه ليقرأ ويمعن في القراءة ، ويفكر ويمعن في التفكير ، ويكتب فيوازن ويصحح ؛ فللعلوم من تعبه نصيب ، وللغات الأجنبية نصيب آخر ، أمّا الحظ الأوفى من عمله فهو للغة العربية ؛ ثم يذكرون مكتبته وما قرأ منها وما لم يقرأ بعد ويتمنون لأنفسهم أن يكونوا مثله ويقدرون له مستقبلاً منتجاً .

حينئذ خيل إلي أن الفتى الذي يتحدثون في شأنه قد ألهم الرأي الأصيل الذي ألهمه عجيبة أدباء العرب طه حسين إذ قال : « إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا معرفة لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضا » . !! وإلا فما شأن الزعبلاوي المكب على العلوم واللغات الاجنبية يعطي بشغف أكبر قسط من تعبه للغته العربية ؟ . .

وبعد النبك انتقل إلى دمشق فتوالت أخباره علي : خبر عن دأبه على الدراسة ، وآخر عن حوزه بعض الشهادات ، وثالث عن كسبه إجازة الحقوق ؛ كل ذلك في مدة يخيل إليّ أنها أقصر أمد يستطيع أثناءه ان يربح ألمع الفتيان مثل هذه الشهادات !

وأدخل ديوان المعارف ، فكان فيه الحركة الدائمة والعمل المتقن والرجل الذي ييسر ولا يعسر ، ويوزع الإنصاف بإنصاف على القريب والبعيد والقوي

والضعيف ؛ ولقد قال لي أحد المعلمين : وصلت أوراقي إلى الزمبلاوي ، وهو لا يعرفني ، فلم يكد يراها حتى حسبت أنها صارت من حاجاته التي لا بد له من قضائها ، ثم مازال يعمل لها حتى فك عقدها واحدة بعد واحدة ، فلما أتمها جاءني مستبشراً كأنه فاز بغرض لا يخص أحداً سواه .

وكذلك النفس القوية تفيض قوتها عن حاجتها فتمنح الناس هذا الفيض ويمتزج ألمهم بألمها وفرحهم بفرحها وهواهم بهواها فتذوق طعم المر ولو لم يمسها المر ، وتذوق طعم الألم ولو لم تصبها الآلام ، فتعمل جاهدة على إبدال الترح بالفرح والظلم بالعدل ؛ تريد أن تهون على الناس الحياة وتخفف عنهم هذا الظلم العام المطلق .

واجتمعت إليه منذ عهد قريب بعد انقطاع بعيد العهد ، وكان بين أصدقائه القدماء ، فصرت إلى الروح الهادئ ، والراحة من ضوضاء المراء ، وإلى القول الفصل ، والرضى بالرأي السديد ؛ وجدته بين أصدقائه بعد تلك الشهادات مثله قبل الشهادات ، وبعد التدرج في الوظيفة مثله ولا مرتب له ، وبعد نباهة الذكر نفسه وهو خامل الذكر ؛ فذكرت الذين إذا ارتقوا في الوظيفة درجة لايزيد معها راتبهم خمس ورقات سورية ، أو تعلموا كلمة لاتكلف فتح الكتاب ساعة من ليلة ، أو حملوا أصغر شهادة مطرفة بالتزييف ملأوا الدنيا صراخاً وعجباً وكبراً ، ثم زانوا على عجل فرق ما بينهم وبين أصدقائهم وكالوا الفرق كيلا مطففا بالغرور ، حتى إذا اجتمعوا إليهم بدهوهم برد آرائهم بالجملة ، ثم استطالوا عليهم ، ثم تجافوا عنهم ، ثم طاش بهم الوزن فتعاظموا بمقدار هذا الطيش ، وتعالموا وتداهوا بمقدار مايذهب التعالم والتداهي من وعيهم ، وبحثوا من جديد عن رفاق جدد وتركوا الأصدقاء !

دار ذلك في خلدي إذ اجتمعت إليه ، وهو بين أصدقائه القدماء ، فعرضت عليّ الضوضاء موصولة بطبل كليلة ودمنة ، وعرض عليّ الصمت الحيّ موصولاً بالكواكب ، فمثل لي في الأولين الخلاء والفراغ وفي الآخرين العمق والأبد ...

نعم على ذلك عرفت الأستاذ الزعبلاوي ، فليجتمع إليه من شاء ليعرف أيضا أنه من الذين إذا فكروا حلّوا عقد التفكير ، وإذا حدثوا سلكوا الجَدَدَ في الحديث ، أو كتبوا سهّلوا ووضّحوا وظفروا من العلم باللباب ومن الفن بكثير من مستور الحياة ؛ ثم لم يفتروا وعافوا المديح بما لم يفعلوا وظهرت في أساريرهم بسمات الإخلاص ولمحات الرجل الدؤوب الصبور أمّا من اعتزل ليقرأ كتابه فقد فاز بكثير من حكمة ذلك الحكيم القائل :

إنما أعتزل لأجتمع إلى الرجل الأمثل .

قدري العمر

أستاذ الأدب العربي في مدرسة تجهيز حماة